مقاربات أولية لمنهج الامام فضل الله في التفسير الاجتماعي للقرآن

الدكتور عبد المنعم حيدري

في القرآن الكريم فلسفة إنسانية تتعلق بالإنسان في مختلف حالاته وأوضاعه باعتباره فردا، أو عضوا في جماعة الإنسانية كلها، ذلك ان القرآن لم يهمل ناحية من هذه النواحي فكان بذلك منبعا لاصول الفلسفة الإنسانية والاجتماعية على تعدد فروعها وتنوعها وكان بذلك واضعا للاسس العامة التي يقوم عليها المجتمع السليم الذي دعا اليه.

١ – لقد رفع الله من شأن الإنسان باعتباره فردا، وذلك بما ابطل من عبادة غيره تعالى، كالاصنام ونحوها التي كان العرب يخضعون لها ولسدنتها ويعتقدون انها تقربهم إلى الله زلفى ووفر له الكرامة التامة بما رفع عنه من سلطان رجال الدين وكهنته، فلا وسطاء ولا شفعاء بين المرء وربه الا لمن ارتضى ولا قسيس أو كاهن يغفر له ما يريد من ذنوبه.

فان الله وحده هو الذي يغفر لمن يشاء وهو قريب لمن دعاه والتجأ اليه وفي هذا جاء القرآن: ﴿واذا سألك عبادي عني فإني قريب اجيب دعوة الداع

اذادعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾ ١٨٦ البقرة. كما جاء في موضع آخر قوله تعالى تبكيتا وتقريعا لمن يجعل مع الله آلهة اخرى: ﴿ أمَّن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاءَ الارض أاله مع الله قليلا ما تذكرون﴾[النمل ٦٢].

وهكذا قرر القرآن انه ما من شفيع ولا وسيط بين الإنسان وربه وان احدا غيره لا يملك له ضرا ولا نفعا وانه لا وسيلة له للقربى من الله الا العمل الصالح وحده فبعمل المؤمن وتقواه تكون منزلته عند خالقه وفي هذا يقول جل جلاله.

﴿ان اكرمكم عند الله اتقاكم ﴾.*وقد اكد الرسول(ص) هذه الحقيقة بقوله: لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى، وبذلك نرى ان القرآن قد استحدث مقياسا جديدا عادلا يعرف به الإنسان قيمته ومنزلته.بل ان القرآن في سبيل رفع الإنسان وتحرير عقله وتفكيره نراه ينعي بشده على تقليد الإنسان لغيره في الباطل حتى لو كان من آبائه واسلافه الأولين وهو في هذا يقول: ﴿* واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما الفينا عليه اباءنا أولو كان اباؤهم لايعقلون شيئا ولا يهتدون﴾ *البقرة اية ١٧٠ .اي هل يتبعون اباءهم فيما وجدوهم عليه ولو كانوا لا يعقلون الخير والشر ولم يهتدوا إلى الحق والرشد.*

٢ – وبعد ان حرر القرآن الإنسان من الاصنام وسدنتها ومن سلطان الاحبار والرهبان ولم يجعل عليه سلطانا الاسلطان عقله السليم وتفكيره الصحيح الذي يعرف به الخير من الشر فقد كان من المنطق ان يجعله مسؤولا عن عمله فلا يحمل عنه احد شيئا من وزره.

وللذلك نراه يقول: ﴿ وان ليس للإنسان الا ما سعى # وان سعيه سوف يرى # ثم يجزاه الجزاء الأوفى ﴾. النجم/٣٩-٤١/.كما يقول في سورة اخرى:﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذره شرا يره ﴾.وكذلك يقول في موضع اخر: ﴿ ولا تزر وازرة وزر اخرى وان تدع مثقلة إلى حملها لايحمل منه شئ ولوكان ذا قربى ﴾ [فاطر ١٨].

٣- وا لله جلت حكمته يعلم ان الإنسان اجتماعي بطبعه فهو لا يستطيع حتى لو اراد ان يعيش وحده بل لا بد له ان يكون عضوا في جماعة ومن ثم تكون له حقوق وواجبات اجتماعية ولذلك نجد القرآن زاخرا في هذه الناحية بالكثير من المبادئ والوصايا التي لا نجد ما يقاربها في اية فلسفة إنسانية أواجتماعية لاي فيلسوف في قديم الزمان أو حديثه ونرى ان نكتفي هنا ببعض هذه المبادئ السامية.التي اعتمدها آية الله السيد محمد حسين فضل الله في تفسيره الاجتماعي (من وحي القرآن)

١- ان القرآن كما امرنا بالايمان با لله ورسوله امرنا بالانفاق مما رزقنا من المال وجعلنا خلفاء فيه وذلك اذ يقول:﴿ امنوابا لله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين امنوا منكم وانفقوا لهم اجر كبير ﴾ الحديد٧ .

وبعد ان تستقر هذه الفكرة في عقل الإنسان وقلبه يكون من اليسير عليه ان يؤتي الفقير حقه في ماله، وان يعين فيه ذوي الحاجة بصفة عامة.وفي هذا وذاك نجد القرآن يجعل من المتقين الذين لهم عند الله حسن الجزاء من:﴿ في اموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ﴾. كما نجده يقول في اية اخرى ﴿ ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من امن با لله واليوم الاخر والملائكة والكتاب والنبيين واتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى

والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب ﴾[البقرة ١٧٧]. وفي ذلك يقدم السيد فضل الله مفهوما جديداً لمفهوم الزكاة والانفاق مرتبطاً بجوهر العنصر الاخلاقي كأساس روحي للسياسة المالية في الإسلام

ب وبعد هذا نجد القرآن لا يؤكد على وجوب الوفاء بما يكون من عقود وعهود بين الافراد وبين الجماعات فقط بل بين الامة الإسلامية وغيرها من الامم الاخرى وحسبنا هنا ان نشير إلى هذه الايات:

﴿ ياايها الذين امنوا أوفوا بالعقود ﴾، ﴿ وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا ﴾[الإسراء ٣٤]، ﴿ وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم، ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ان الله يعلم ما تفعلون ﴾[النحل ٩١].

وبعد ان جاء في القرآن الامر هكذا بالوفاء بالعقود والعهود بصفة عامة باعتباره اصلا من اصول الإسلام تراه امراً مطلقا لا يقتصر على ما يكون بين المسلمين من عقد أو عهد بل يعم حتى المشركين الذين لا يؤمنون بشئ من كتب الله ورسالاته. وفي هذا المجال نقف على تفسير جديد لسماحة الامام فضل الله حول مسألة الجزية تكشف عن عمق إنسانية التشريع الإسلامي.

فالقرآن يعم هؤلاء الذين كانوا شديدي العداوة والاذي للرسول ومن امن به فالوفاء بما كان بينهم وبين الرسول والمؤمنين من عهد كان قد امر به القرآن وجعله لازما ما داموا لم ينقضوه هم من ناحيتهم وهو في هذا يقول بعد ذكره براءة الله ورسوله منهم: ﴿ الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم احداً فاتموا اليهم عهدهم إلى مدتهم ان الله يحب المتقين ﴾[التوبة ٤].

واين هذا مما يدل عليه حال الامم الغربية يتعاهدون ويحكمون المعاهدات والمواثيق فلا يتركون لفظا أو حرفا يكون فيه تحلة منها حتى اذا وجدت الدولة القوية فرصة نقضت ما ابرمت على غير خجل أو حياء ما دامت تستند إلى القوة والعتاد والحديد والنار. ولذلك يؤكد سماحته في اكثر من مناسبة على قيمة العدالة بمعزل عن هوية الخصم الدينية لانها قاعدة البناء الاجتماعي كله.

ج- وكما يقرر القرآن وجوب الوفاء بما نعقد من عهود ومواثيق يؤكد ضرورة التزام الامانة والعدل ولوعلى انفسنا أو الوالدين والاقربين من الناس الينا هاهو ذا يقول ﴿ واذا قلتم فاعدلوا ولوكان ذا قربى ﴾[الأنعام ١٥٢] كما يقول ﴿ يايها الذين امنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولوعلى انفسكم أو الوالدين والاقربين ان يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا وان تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيرا ﴾[النساء ١٣٤] وليس ذلك واجبا في حال دون حال بل هو واجب حتى بالنسبة لمن يكون بيننا وبينهم بغضاء وعداء ومن ثم نجد الله العليم الحكيم يقول: ﴿ يايها الذين امنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ان لاتعدلوا اعدلوا هو اقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون﴾ [المائدة ٨]

د- ونعتقد ان السبب فيما يدعو اليه القرآن من العدل والامانه على النحو الذي أوفى على الغاية فلا فرق بين احد واخر في الحقوق والواجبات الاجتماعية العامة السبب هو نظرته إلى ان الناس جميعا سواسية وان اختلفت اجناسهم واديانهم. وفي ضوء ذلك يستنتج الامام فضل الله صيغة نموذجية للتعايش بين الاديان

وفي ذلك جاء القرآن: ﴿ يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير ﴾ [الحجرات ١٣] كما جاء في الحديث النبوي ان الناس جميعا سواسية كاسنان المشط كلهم لادم وادم من تراب لا فضل لعربي على اعجمي الا بالتقوى. وعلى هذا الاساس يحدد سماحته دام ظله مرتكزات المواطنية الصالحة واصول الانتماء لفكرة الوطن.

٤- واخيرا ان الإنسان قد يناله من هذا أوذاك من اخوانه في الوطن الذي يعيش فيه وهنا نرى القرآن يحث على الصفح والعفو ومقابلة السيئة بالحسنة حينا كما يجيز ان يدفع السيئة بمثلها في غير اعتداء وتجاوز عن الحد ليكون هذا انتصاراً لنفسه ودفعا لعدوان المعتدين ولكل من هذا وذاك أي الصفح والانتصار للنفس موطنه الذي يليق به والحديث عن الاخلاق الموادعة والمسالمة داخل المجتمع الإسلامي يغيب عن معالجات السيد لقواعد تماسك الامة الموحدة الامر الذي يؤكد صلة هذا التفسير الاجتماعي بالاخلاق العملية التي لا تستقيم بدونها مجتمع

فأولا: يحث الله تعالى الذين يسئ اليهم وغيرهم على الصفح عنهم ويرغبهم في العفو بانه يكون السبب للمغفرة وذلك بقوله تعالى: ﴿ وليعفوا وليصفحوا الاتحبون ان يغفر الله لكم والله غفور رحيم ﴾[النور ٢٢]، ﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي احسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كانه ولي حميم، وما يُلَقّاها الا الذين صبروا وما يُلَقّاها الا ذو حظ عظيم ﴾[فصلت ٣٤، ٣٥]

ثانيا: لا ينبغي لنا ان نفهم من دعوة القرآن إلى التسامح والعفو انه يدعو إلى الضعف وقبول الضيم والعفو عن الذين لا يزيدهم العفو الاامعانا في الاساءة والاذى والعدوان بل انه ليدعو في هذه الحالة إلى ان ينتصر الإنسان لنفسه وهذا اذ جعل من المؤمنين الذين يتوكلون على ربهم أولئك: ﴿ الذين اذا اصابهم البغي هم ينتصرون ﴾[الشورى ٣٩] ثم قال بعد هذا: ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا واصلح فاجره على الله انه لا يحب الظالمين ولمن انتصر بعد ظلمه فاؤلئك ما عليهم من سبيل ﴾[الشورى ٤٠ -٤١].

ومع ذلك ان لنا ان نقدر ان ما ندب اليه القرآن من الصفح والعفو عن المسى انما هو في حقوق الافراد حين يعتدي بعضهم على بعض فينالـه بشئ من الاذي اما حين تعتدي امة من الامم علينا معشر المؤمنين فانه من الذل والكفر بما وعدنا الله في كتابه العظيم من النصر على الظالمين ان نجنح إلى الصفح والعفو بل لابد من مواجهة ذلك في سبيل الانتصاف لانفسنا وامتنا مع الايمان بنصر الله الذي وعده عباده المؤمنين المجاهدين ومن أوفى بعهده من الله العزيز الحكيم

وبعد فان القرآن العظيم بما اشتمل عليه من اصول الفلسفة الالهية والطبيعية قد دفع المسلمين بمعناه الواسع، وهذا ما سنعرفه بالتفصيل فيما يأتي من مقاربات اخرى لتفسير سماحة الامام السيد محمد حسين فضل الله للقرآن وهوبماوضع من منهج وبما قرره من اصول التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، قد دعا بقوة لاقامة المجتمع السليم الصالح للحياة القوية العزيزة الماجدة هذه الحياة التي تقوم على هذه الدعائم وما اليها بسبيل الايمان بالله مصدر كل خير والعدالة والامانة والوفاء والتسامح والعفو مع من يصلحهم العفو والاغضاء

عما يكون منهم من اساءة والمساوة بين الناس جميعا في الحقوق والواجبات العامة وحرية العقل والتفكير والاعتزاز بالإنسان وكرامته إلى غير ذلك كله مما لا يصلح مجتمع للحياة الطيبة بدونه والابتهال إلى المولى سبحانه ان ينفعنا بهدى هذا الكتاب المنير وا لله الهادي إلى سواء السبيل.الذي امرنا الله سبحانه بتلاوته والتدبير فيه وا لله الهادي إلى سواء السبيل

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

أيضاً دُعَاؤُهُ فِي طلب المغفرة

اللّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ الْمَنَّانُ ، بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ، ذُو الْجَلاَلِ وَالأَكْرَامِ ، إِنِّي سَائِلٌ فَقِيرٌ وَخَائِفٌ مُسْتَجِيرٌ ، وَتَائِبٌ مُسْتَغْفِرٌ ، اللّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ وَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي كُلَّهَا ، قَدِيمَهَا وَحَدِيثَهَا ، وَكُلَّ ذَنْبٍ أَذْنَبْتُهُ ، اللّهُمَّ لاَ تَجْتَهِدْ بَلاَئِي وَلاَ تُشْمِتْ بِي أَعْدَائِي ، فَإِنَّهُ لاَ دَافِعَ وَلاَ (مَانِعَ إِلاَّ أَنْتَ) .